مجلد ٨ — عدد ٣١

أبريل ١٩٤٨

الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس

طه حسين	فى الأدب النرنسى — الوباء	٣٣٣
محمد رفعت	سياسة الدول فى الشرق الأوسط	٣٤٧
سليمان حزين	فى بلاد اليمن	٣٥٧
بشر فارس	وراء المنظور (قصيدة)	٣٦٨
محمد عبد الله عنان...	مراثى الأندلس	٣٦٩
محمد كامل حسين ...	كتاب سيرة الأستاذ جوذر	٣٧٨
ابراهيم عوبديا	بين السياسة والأدب ـ هجس (قصيدتان)	٣٨٦
حسن عثمان	دانتى أليجييرى	٣٨٨
هيلديه زالوشر	البناء الاجتماعى والتعبير الفنى	٣٩٩
محمد عبده عزام	رحلة (قصيدة)	٤١٢
زكى يوسف سعد ...	الحفائر الملكية بحلوان	٤١٤
او ين ا. هولواى	وليم فولكنر	٤٢٣
عبد الرحمن صدقى ...	خاتمة المطاف ـ حلم بالموت (قصيدتان)	٤٣٢
شوقى ضيف	المهذب بن الزبير	٤٣٤

من هنا وهناك (على حافظ — حسين محمد الطيب)

شهرية السياسة الدولية — شهرية العلم — شهرية السينما

من كتب الشرق والغرب — من وراء البحار — ظهر حديثا

فى مجلات الشرق — فى مجلات الغرب

تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

القاهرة

الكاتب المصرى

جمادى الأولى ١٣٦٧ — ابريل ١٩٤٨

السنة الثالثة — مجلد ٨ — عدد ٣١

فى الأدب الفرنسى

الوبـــاء

هذا كتاب أتيح له فى العام الماضى من النجح ، ما لم يتح لكتاب فرنسى منذ أعوام طويلة . أجمع النقاد الفرنسيون ، أو كادوا يجمعون على الرضا عنه والاعجاب به . ولعله ظفر بأضخم طبعة عرفتها الكتب الفرنسية ، منذ الحرب العالمية الثانية . وقد قدمه ناشره لجائزة خطيرة من جوائز الأدب فى فرنسا ، وهى جائزة النقد ، فظفر بها فى غير مشقة ، أو قل ظفر بها فى غير امتحان ؛ فقد صرح بعض المحكمين للصحف بأنه صوت لهذا الكتاب دون أن يقرأه ، لأنه يمنح مؤلفه ألبير كامو من حبه وثقته وإعجابه ما يعفيه من قراءة كتابه قبل أن يمنحه الجائزة . ولست أدرى إلى أى حد يسوغ هذا فى قضية العقل ، وفى قضية النقد الأدبى الصحيح ، ولكنه على كل حال يدل على المكانة الرفيعة الممتازة التى يرقى إليها ألبير كامو فى نفوس النقاد الفرنسيين ، بل فى نفوس الأدباء والمثقفين والمفكرين الفرنسيين بوجه عام . وسيرة المؤلف أثناء الحرب هى التى رفعته إلى هذه المنزلة . فقد وفا لوطنه أثناء المحنة ، كأحسن ما يفى الناس لأوطانهم ، وكأحسن ما يفى المثقفون لأوطانهم ، واحتمل فى سبيل هذا الوفاء من الجهد والمشقة والعسر ، ما لم يحتمله كثير من المثقفين الفرنسيين . ثم هو إلى ذلك نافذ البصيرة ، دقيق الفطنة ، صارم الرأى ، مؤمن بالحرية ، وبالحرية الواضحة الصريحة المستقيمة ، التى لا تحب غموضاً ولا التواء . وهو بعد هذا كله ، أو مع هذا كله ، كاتب

ممتاز ، قد أخضع اللغة الفرنسية لسلطانه الصارم السمح معاً ؛ فبرع فى الوصف إلى حيث لا يكاد يباريه أحد من معاصريه ، و برع فى اليسر إلى حيث لايشق فهمه على أحد . ثم هو بعد هذا كله ، أو قبل هذا كله ، ليس صاحب امتياز فى البيان وحده ، ولكنه صاحب امتياز فى التفكير أيضاً . فهو أديب بأدق معانى هذه الكلمة وأوسعها ، وهو فيلسوف بأدق معانى هذه الكلمة وأوسعها أيضاً . له محاولات رائعة فى فهم الحياة وتفسيرها ، وفى استكشاف الصلة بين الانسان والعالم الذى يعيش فيه ، وفى تفسير الوجود من حيث هو وجود ، وفى تفسير المصير الذى أتيح للانسان أن ينتهى إليه .

والمثقفون جميعاً يعرفون مذهب ألبير كامو فى العبث ، وكثير منهم قرءوا دون شك كتابه الرائع المشهور أسطورة «سيزيف» . وأسطورة هذا البطل اليونانى معروفة ؛ فقد قضى عليه أن يظل فى دار الموتى مقبلا على صخرة عظيمة ،يرفعها من سفح الجبل إلى قمته ، يلقى فى ذلك الجهد والنصب والعناء ، حتى إذا ارتقى بالصخرة إلى القمة رآها تدفع إلى الانحدار بقوة لا يملك لها رداً ، حتى تصل إلى حيث كانت من القاع . ورأى نفسه مضطراً بحكم القضاء إلى أن يستأنف الجهد والنصب والعناء ، فيدفع الصخرة ليرفعها إلى القمة ، وما يزال يرقى بها إلى أعلى الجبل ، وما تزال تنحدر به إلى القاع ، إلى آخر الدهر ، إن كان للدهر آخر . فهذا الجهد الذى يبذله ، وهذا النصب الذى يلقاه ، وهذا العناء الذى يشقى به ، عبث متصل ليست له غاية يقف عندها ولا حد ينتهى إليه ، ولا غرض يبتغى منه . والعالم عند ألبير كامو شئ يشبه هذا الجهد الذى يبذله البطل اليونانى فى غير طائل . فليس للعالم غاية ينتهى إليها ، ولا حد يقف عنده ، ولا غرض يبتغى منه ، وإنما هو ماض فى هذا الوجود العابث إلى غير غاية ، ولا أمد ، و إلى آخر الدهر إن كان للدهر آخر . والانسان فى هذا العالم مدفوع إلى مثل ما دفع إليه العالم ، من هذا العبث الذى لا ينتهى إلى غاية ، ولا يحقق غرضاً . وليس بينه وبين غيره من الكائنات التى يأتلف منها العالم فرق إلا أن له شعوراً وعقلا ؛ فهو يحس الجهد العنيف الذى يبذله ، و يجد النصب الناصب الذى يلقاه ، ويأسى للعناء البغيض الذى يشقى به ، ويحاول أن يفهم جهده ونصبه وعناءه ، فلا يصل إلى شئ ، أو يصل إلى ما يخيل إليه أنه حل للمشكلة ، وتفسير

للغز ، ولكنه إذا تعمق ما يصل إليه من حل وتفسير لم يجد وراءه شيئاً ؛ فهو مصعد فى الجبل دائماً وأمامه صخرته تلك ، وهو مصوب فى الجبل دائماً وأمامه صخرته تلك ، وهو ينفق الدهر كله فى تصعيد وتصويب تتابع أجياله على ذلك ، رافعة للصخرة إلى القمة ، منحدرة معها إلى القاع . ومهما يفعل الانسان فلن يستطيع أن يغير من هذا العبث شيئاً . ولكنه مع ذلك حر فى حدود هذا العبث ، يستطيع أن يلائم بينه وبين نفسه ، وأن يختار ن أطوار الحياة والتفكير والعمل ما يريد ، وأن يحقق مما يختار ما تساعده الظروف على تحقيقه . يستطيع أن يؤثر لوناً من الحياة على لون ، وضرباً من التفكير على ضرب ، وفنا من التصرف على فن ، ولكنه لا يستطيع أن يجعل للوجود غاية أو غرضاً ، ولا يستطيع أن يغير أنه دفع إلى الحياة غير مختار ، وسيدفع إلى الموت غير مختار ؛ فحريته محدودة بهذين النوعين من الجبر . فليصطنع الحكمة إن شاء ، وليصطنع الحمق إن أحب . فلن يخرج من هذه الحلقة المفرغة بحال من الأحوال .

ويمضى ألبير كامو فى الملاءمة بين مذهبه هذا اليائس ، وبين الحياة التى يحياها الناس على اختلافها وتباين منازلهم فيها وحظوظهم منها . ثم هو لا يكتفى بهذا الكتاب . ولكنه ينتقل بمذهبه هذا إلى القصص ، وإلى التمثيل . فقصة الغريب ، ومسرحية كاليجولا ، وسوء التفاهم ، ليست فى حقيقة الأمر إلا محاولات للملاءمة بين هذا العبث الأساسى ، وبين حرية الانسان .

والكتاب الذى أتحدث عنه يعرض هذه المشكلة عرضاً واضحاً جليا ، وهو من أجل ذلك يثير الرغبة كل الرغبة فى البحث والجدل والاستقصاء . ويجب أن أقول إن العنوان الذى اتخذته لهذا الحديث ، ليس هو العنوان الدقيق لهذا الكتاب ؛ فعنوان الكتاب هو « الطاعون » . وقد كرهت أن أجعل هذا اللفظ البشع عنواناً لهذا الحديث ، وكنت أريد أن أتحدث إلى القارئ عن هذا الكتاب ، أثر عودتى من فرنسا ، فى أول الخريف الماضى ، ولكنى وجدت مصر موبوءة بالكوليرا ، ووجدت حديث الوباء فيها شائعاً مستفيضاً ، كما كان الوباء نفسه شائعاً مستفيضاً . فكرهت أن أتحدث عن الوباء ، وأجلت الحديث إلى فرصة أخرى ، ثم أنسيته ، ثم شغلت عن تذكره حتى كان شهر مارس ، فاذا حديثان يلقيان إلى الجمهور المثقف باللغة الفرنسية عن هـذا

الكتاب ، يلقيهما حبران جليلان من أحبار المسيحية الكاثوليكية . أحدهما الأب زوندل ، وقد ألقى حديثه فى دار السلام ، والآخر الأب بونتيه ، وقد ألقى حديثه فى نادى الشبيبة .

وقد استمعت لهذين الحديثين ، فذكرت ما كنت قد نسيت ، ورأيت أن أتحدث إلى قراء هذه المجلة عن هذا الكتاب ، على نحو ما كنت أريد أن أتحدث إليهم عنه فى الخريف . وليس غريباً أن يثير هذا الكتاب اهتمام المسيحيين ، واهتمام أحبارهم خاصة ، بل من الطبيعى أن يثير اهتمام أحبار الديانات كلها ؛ لأنه يضع موضع البحث مصير الانسان من جهة ، ويضع موضع البحث موقف العقل من الدين ، أو موقف العقل من الإلٰه من جهة أخرى . وهو يضع هذه المشكلة وضعاً صريحاً فى هذا الكتاب ؛ لأنه ينطق حبراً من أحبار الكاثوليكية برأيه فى الصلة بين الانسان وخالقه ، ثم ينطق فريقاً من الذين لا يؤمنون بما ينقض آراء هذا الحبر المسيحى . ففى الكتاب شئ من التحدى لم يوجد فى الكتب الأخرى التى عرض فيها ألبير كامو مذهبه هذا فى الوجود .

ولاحظ قبل كل شئ أنى قد قرأت هذا الكتاب أثناء الصيف الماضى وأقبلت على قراءته مشغوفاً بها ، مشوقاً إليها أشد الشوق ؛ لأنى أحب الكاتب وأعجب بفنه ولكنى لم أكد أمضى فى قراءة الكتاب ، حتى أدركنى شى من خيبة الأمل ، ثم أخذت أضيق به وأمضى فى قراءته كارهاً للمضى فيها ولو قد استجبت لميولى الأدبية لما اتممت قراءة الكتاب ، ولكنى لا أكاد أبدأ كتاباً حتى أفرض على نفسى إتمامه ، مهما يكن رضاى عنه ، أو سخطى عليه . تفرض ذلك علىّ طبيعتى التى تحب الاستقصاء ، وصناعتى التى تفرض على الاستقصاء فرضاً ، وتدفعنى إلى أن أتهم نفسى ولا أحفل بما يثور فيها من رضا أو سخط ، ولا أجعل رضاها أو سخطها وسيلة إلى الحكم للكتاب أو الحكم عليه .

ومصدر هذا الضيق الذى وجدته أثناء هذه القراءة أن الكاتب أخلف ظنى ؛ فقد كنت أنتظر أن أقرأ آية أدبية كالغريب ، أو كاليجولا ، أو سوء تفاهم ، أو كنت أنتظر أن أقرأ دراسة فلسفية متقنة كأسطورة سيزيف ، فاذا أنا أمام شئ ليس هو بالقصص الخالص ، ولا هو بالفلسفة الخالصه ، وإنما

هو محاولة لشئ بين ذلك : يريد أن تكون قصة تروع بالفن الأدبى فلا يبلغ ما يريد ، و يريد أن يكون درساً يروع بدقة البحث وحسن الاستقصاء فلا يبلغ ما يريد .

وقد عرض علينا ألبير كامو فى كتابه هذا مدينة بعينها هى مدينة وهران فى الجزائر ، تصور أنها قد امتحنت ذات يوم بوباء الطاعون . فهو يعرض علينا كيف استقبلت المدينة هذا الوباء شاكة فيه ساخرة منه أول الأمر ، وكيف استقبلت هذا الوباء بعد أن انجلى بشك . وأبانت الكارثة عن نفسها فى غير غموض ، فكان الذعر والهلع ، وكان تردد الحكومة وتلكؤها وتقصيرها . ثم كيف استقبلت المدينة هذا الوباء حين عظم أمره ، واشتد فتكه وأصبح خطره شنيعاً ، فقطعت المواصلات بينها وبين العالم الخارجى ، وضرب عليها حصار شديد قاس يمنع الخروج منها والدخول إليها ، ويعزلها عن العالم عزلا تاما ، لولا البرق الذى ينقل أطرافاً من أخبارها إلى الدنيا ، وينقل إليها أطرافاً من أخبار الدنيا ، ويتيح لبعض أهلها فى كثير من المشقة والجهد ، أن يتصلوا بذوى قرباهم فى المواضع النائية عنهم . وكل هذا التصوير صادق كل الصدق ، دقيق كل الدقة ، قد شهدناه إلى حد ما فى الأشهر القليلة الماضية . وتصوير آخر لحال المدينة ليس أقل صدقاً ولا دقة من هذا التصوير ، وذلك حين يعرض الكاتب ما يكون من الصلة بين الحكومة وبين الشعب أثناء المحنة . فالحكومة فى أول الأمر قد فوجئت بالكارثة ، لم تكن تنتظرها ولم تكن قد استعدت لها . وهى من أجل ذلك تنكر الكارثة مخلصة ، ثم متكلفة ، ثم مكابرة ، ثم تضطر إلى الاعتراف بما ليس بد من الاعتراف به ، ثم تتخبط فى مواجهة الكارثة ، فيكثر خطؤها ويقل صوابها ، ثم تلتجئ إلى العالم الخارجى تطلب منه المعونة والغوث ، ثم تنتهى آخر الأمر إلى الحزم الجاد حتى يزول الوباء . وهى فى أثناء هذا كله لا تقول للناس من أمر الكارثة وتطورها وفتكها وضحاياها إلا ما تريد هى أن تقول . وبين ما تقوله للناس وبين الحقائق الواقعة بون شاسع وأمد بعيد دائماً .

وليست حال الشعب نفسه بخير من حال الحكومة ؛ فالشعب يشك ثم ينكر ، ثم يتكلف ثم يكابر ، ثم يذعن للحقيقة الواقعة ، ثم تختلف به المذاهب بعد ذلك : فأما الفقراء فيذعنون فى غير مقاومة ويؤدون إلى الوباء ضريبته

فادحة . وأما الأغنياء فيؤثرون أنفسهم بأسباب الوقاية والعلاج ما وجدوا إلى ذلك سبيلا . وأما أوساط الناس فيتذبذبون بين أولئك وهؤلاء بمقدار حظهم من اليسر وسعة ذات اليد . وقد حوصرت المدينة وفرضت عليها الأحكام العرفية وقتر على أهلها فى الرزق ؛ فشقى الفقراء إلى غير حد ، ونعم الأغنياء مااستطاعوا أن ينعموا ، واضطرب أوساط الناس بين الشقاء والنعيم . وتكشفت الأخلاق عن مكنونها ، فكانت الأثرة ، وكان الاحتكار ، وكان ما ينشأ عنهما من التنافس والتباغض والاحتيال إلى آخر هذه الرذائل التى تتكشف عنها الانسانية حين تلم بها الخطوب ، وتلح عليها الكوارث . وفى أثناء هذا الشر كله يظهر شئ من خير قليل ، ولكنه قيم منتج قوى ، يستطيع أن يقهر الشر شيئاً فشيئاً حتى يمحوه وحتى يطرد الوباء عن المدينة ، ويرد الناس إلى ما ألفوا من حياة ، أو يرد إلى الناس ما ألفوا من حياة . فهؤلاء الأطباء الذين يعرفون الوباء ويحققون خطره ، ويصممون على مقاومته ماوسعتهم هذه المقاومة ، لا يدخرون فى سبيل ذلك جهداً ، ولا يبخلون بقوتهم مهما تكن ، ولا يترددون فى التضحية براحتهم وأمنهم ، وفى التعرض للخطر مصبحين وممسين ، ولا يبتغون على ذلك أجراً لا فى الدنيا ولا فى الآخرة . لأنهم لايؤمنون بالآخرة ، ولأنهم يرون أن أجور الدنيا ليست بذات خطر ولا غناء ، فهم أعداء الوباء لأنه الوباء ، وهم حماة الحياة والصحة لأنهما الحياة والصحة ، لا أكثر ولا أقل .

هذه هى الخلاصة الظاهرة للكتاب . وهى كما ترى يسيرة قريبة ، لا عسر فيها ولا بعد . وهى كما ترى لا تدل على عمق فى التفكير ولا على براعة فى الابتكار . ولكن هذه الخلاصة الظاهرة ليست إلا أيسرما فى الكتاب ، بل قل إنها ليست إلا رمزاً ضئيلا للحقيقة التى أراد إليها الكاتب حين ألف الكتاب . فهو لم يرد إلى مدينة وهران ولا إلى غيرها من الدن . وهو لم يقصد إلى الطاعون ولا إلى غيره من هذه الأوبئة التى تلم بالناس بين حين وحين . وإنما أراد إلى ما هو أعظم من ذلك شأناً ، وأجل خطراً ، وأكثر شمولا . فمدينة وهران رمز لفرنسا وغيرها من البلاد الأوربية التى اجتاحتها الحرب ، واحتلها العدو وعزلها من العالم الخارجى عزلا تاما . والطاعون هو الحرب والاحتلال والبطش والنكال . والشعب الذى انقسم هذا الانقسام ،

وتفرقت طوائفه هذا التفرق ، وتكشفت أخلاقه عن هذه السيئات الكثيرة والحسنات القليلة ، واحتمل ما احتمل ، وقاوم ماقاوم حتى انجلت عنه الغمرة، هو هذه الأمم التى اصطلت نار الحرب ، وخضعت لنكر الاحتلال . والأطباء والمتطوعون الذين جاهدوا بأنفسهم وضحوا بحياتهم حتى جلوا هذه الغمرة ، لم ينتظروا على ذلك أجراً ، هم قادة المقاومة وزعماء الجهاد . بل إن هذه الحقيقة نفسها ليست إلا رمزاً لحقيقة أخرى أعم منها وأكثر شمولا . فمدينة وهران ليست فى حقيقة الأمر إلا الأرض كلها . وشعب وهران ليس فى حقيقة الأمر إلا الانسانية كلها . وطاعون وهران ليس فى حقيقة الأمر إلا الشر الذى يلم بالناس فى جميع المواطن والعصور . وأطباء وهران ومتطوعوها ليسوا إلا المفكرين والمثقفين والمصلحين والفلاسفة ، الذين يبذلون ما يملكون من جهد لوقاية الانسانية وحمايتها مما يلم بها من الشر ، ويصب عليها من المكروه . فالكتاب كما ترى يسير قريب فى ظاهره ، ولكنه أشد عمقاً وأبعد مدى مما يخيل إلينا هذا اليسر ؛ لأنه فى أيسر صورتيه الرمزيتين ، إنما يعرض جزءاً غير صغير من العالم الذى اصطلى نار الحرب ، وما ألم بهذا الجزء من الخطوب والمشكلات ، وما بدا فيه من مظاهر الضعف والقوة وألوان الجبن والبطولة . وهو فى أشد صورتيه عمقاً وتعقيداً ، إنما يضع قصة الانسانية كلها موضع البحث ، ويعرض قضية الخير والشر كلها على العقل ، ويحاول أن يجد جواباً لهذا السؤال التى تلقيه الانسانية العاقلة على نفسها منذ عقلت ، وهو : ما مصير الانسان ؟

وهنا يسأل القارئ نفسه قبل كل شئ : هل وفق الكاتب توفيقاً أدبيا حين اختار هذا الرمز الضئيل النحيل لهذه المشكلة الكبيرة الخطيرة ، وهى حال العالم الذى اصطلى نار الحرب ؟ ثم هل وفق الكاتب توفيقا أدبيا حين اختار هذا الرمز الضئيل النحيل لهذه القضية الكبرى ، قضية الانسان بين الخير والشر ، وقضية الانسان بين العقل والدين ؟ أما أنا فأعتقد أن التوفيق الأدبى قد أخطأه إلى حد بعيد ؛ لا لأن الرمز ضئيل نحيل ، فمن طبيعة الرمز أن يكون ضئيلا نحيلا بالقياس إلى ما يرمز إليه الكاتب من المسائل الكبرى والمشكلات الضخام ؛ ولكن لأن هذا الرمز الضئيل النحيل قد احتاج إلى تفصيل كثير لا يلائم ضآلته ونحولته . فمدينة

وهران قد فجأها الطاعون كما أن العالم قد فجأته الحرب . ومدينة وهران قد شقيت بالطاعون ، وأظهر هذا الشقاء ما فى نفوس أهلها من خصال الخير والشر ، كما أن جزءاً من العالم قد شقى بالحرب التى أذلته ، وأظهر هذا الشقاء ما فى نفوس أهله من خصال أهله من الذلة والعزة ، والضعف والقوة والخور والجلد ، والأثرة والايثار . كل هذا حق لا شك فيه . ولكن دقائق الرمز قد احتاجت إلى إغراق فى التفصيل ، أخرجه عن أن يكون رمزاً . فوصف الطاعون وصفاً مفصلا ، يصور أعراض العلة ومظاهرها وتطورها ، ودقائق علاجها وأعقابها وعقابيلها ، وآثارها فى نفوس القريبين منها والبعيدين عنها ، كل ذلك يبعدنا عن الرمز ليغرقنا فى دقائق الحياة الخاصة . فنحن فى مدينة قد ألم بها الطاعون وألح عليها ، ونحن مشغولون بهذه المدينة البائسة المعذبة ، وبهذا الوباء الذى تفصّل دقائقه تفصيلا ، عن التفكير فى أوربا المغلوبة على أمرها ، الممتحنة بالبطش والعسف والاحتلال . بل نحن مصروفون إلى هذه المدينة البائسة المعذبة ، وما تلقى من هذه الأهوال اليومية الذى تفصّل دقائقها تفصيلا ، عن التفكير فى الانسانية حين يلم بها الشر وتدلهم من حولها الخطوب ، لولا أن الكاتب يضطرنا إلى هذا التفكير بما يدير حول بعض الأشخاص من حوار يتجاوز المحنة الخاصة إلى الشر العام ، وبما يسجل هو من ملاحظات تتجاوز مدينة وهران ومحنتها ، إلى طبيعة الحياة الانسانية وما يختلف عليها من الكوارث والأحداث . فالقارئ قلق مضطرب متردد لا يدرى أهو بازاء رمز مجمل يشير إلى أحداث خطيرة وقضايا عويصة ، أم هو بازاء قضية بعينها لا يريد الكاتب أن يبعد به عنها ، وإنما يريد أن يتعمقها معه تعمقاً وهى امتحان وهران بهذا الوباء .

ذلك إلى أن الكاتب أراد أن يكون موضوعيا كما يقال ، فجعل نفسه قاصّا يروى أحداثاً سجلها أثناء هذه المحنة ، وقد برأ نفسه من الذاتية التى تجعل للعواطف والأهواء والميول والغرز أثراً أى أثر فيما يروى من الأحداث . وهذا النوع من تكلف الاعراض عن الفن والالحاح فى الرواية الموضوعية ، قد يكون فى نفسه فنّا رائعاً ، ولكن الكاتب لم يحسنه . فقصصه ممل فى كثير من المواضع كأنه يتكلف شيئاً لا يتقنه ، وهو من أجل هذا يثقل على القارئ بعض الشئ . وما أحب أن أظلم الكاتب ؛ فقد ينبغى أن أسجل أنه برع

البراعة كلها فى القسم الأول من كتابه ، فأنشأ البيئة الفنية أحسن إنشاء وأجوده . وقد تحدثت إلى غير قارئ من الفرنسيين فى باريس عن هـذا الكتاب حين بدأت قراءته . فقال لى غير واحد منهم : لن تستطيع أن تفتن بالكتاب قبل أن تفرغ من ثلثه الأول . ولكنى فرغت من ثلثه الأول ، والثانى والثالث ، ونظرت فاذا أنا مفتون بثلثه الأول دون ثلثيه الأخيرين . ذلك لأن الكاتب أرسل نفسه على سجيتها حين ابتدأ كتابه : فهذا طبيب يخرج من منزله فى طابق من الدار الكبيرة التى يسكنها ، فيرى فى الدهليز فأراً ميتاً ، ويلفت البواب إلى مكانه ؛ فيغضب البواب لأن داره نظيفة لا يمكن أن يوجد فيها فأر ميت . ثم تمضى الأحداث فى يسر يسير على هذا النحو ، حتى يعود الطبيب ذات يوم ، فاذا البواب يعترف بكثرة الجرذان التى تموت . ثم يعود ذات يوم فاذا البواب نفسه عليل ؛ فيحاول علاجه ؛ حتى إذا ثقل نقله إلى المستشفى ، فمات فى أثناء الطريق،كل هذا يصور ابتداءً رائعاً لكتاب يريد أن يصف إلمام الطاعون بمدينة من المدن ، وأمر هذا الطبيب والبواب ليس إلا مثلا ؛ ففى المدينة قوم آخرون يمرون بالجرذان الميتة ، فينكرون ثم يرتابون ثم يذعرون ، والحكومة تتنبه شيئاً فشيئاً ، فتنكر وترتاب وتذعر ، وتحاول أن تهدئ الشعب ، ثم ترى نفسها أمام الحقيقة الواقعة ، فتأخذ الشعب بالقوة والحزم . وهذا كله يذكر القارئ بما كان من نذر الحرب الأخيرة حين كانت الأحداث اليسيرة تحدث فيلتفت إليها أصحاب الأنظار البعيدة ، ويعرض عنها أصحاب الأنظار القصيرة ، وتكون الحكومات بين هؤلاء . ولكن الأحداث الصغيرة تكثر وتنتشر ، كما تكثر الجرذان الميتة وتنتشر ، فيكون الشك ، ثم يكون الخوف ، ثم يكون الذعر ، ثم تكون مواجهة الحقيقة الواقعة البشعة .

ولو أن الكاتب مضى فى سائر كتابه على النحو الذى مضى عليه فى أوله لأهدى إلينا كتاباً رائعاً ، ولكنه لم يلبث أن تعثر فى التفصيلات والدقائق الخاصة ، فأفسد الكتاب على نفسه وعلينا جميعاً .

وأخرى لابد من تسجيلها رعاية لما ينبغى من الانصاف ؛ فقد صور الكاتب جماعة من أشخاص الكتاب تصويراً دقيقاً صادقاً حقا . فهذا الطبيب الذى رأى الجرذ الميت ، وسبق إلى الانذار بوباء الطاعون ، واستقبل الجهاد فى ثبات

وأناة ، وتضحية وتواضع لا ينتظر أجراً ، ولا يريد إلا أن يقهر الوباء وينقذ الحياة من شره . وهذا الصحفى الذى فجأه الوباء فى المدينة ، وهمّ أن يخرج منها ليلحق بمن يحب ، واحتال فى هذا الخروج وبذل فيه الممكن وغير الممكن من الجهد ، فلما استيأس من ترك المدينة أقبل على الطبيب ، فتطوع للجهاد وأبلى فيه أحسن البلاء . وهـذا الشاب الطموح إلى المثل العليا ذو الآمال البعيدة والأمانى العراض ، والذى أقبـل منطوعاً فأشاع الحماسة من حوله ، ونظم الجهـاد فأحسن تنظيمه ، ومضى بعد الانتصار ضحية أخيرة للوباء . وهذا الموظف المتواضع الذى يداعب الغرور الفنى ، ويحاول فى سذاجة أن يكون كاتباً يضع قصة غرامية يتعزى بها عما أصابه من المحن ، ويتقنها حتى يرقى بها إلى أرفع منازل الفن ، والذى يترك هذه القصة فى يسر وفى غير تكلف ليعنى بالجهاد حتى يبلى فيه أحسن البلاء ، لا يشعر بأنه يجاهد ، ولا بأنه يضحى ، ولا بأنه يتعرض للخطر ، وإنما يشعر بأنه يؤدى واجب التضامن الاجتماعى فى أيسر اليسر — كل هؤلاء الأشخاص وأشخاص آخرون قد صورهم الكاتب فأجاد تصويرهم وبرع فيه . ولكنهم يظهرون فى أثنـاء هذا الكتاب ، كأنهم الواحة التى يرتاح إليها القارئ بين حين وحين ، وكأن القصة من حولهم طريق وعرة مضنية ، لا يمضى القارئ فيها إلا متكرهاً يحتاج إلى أن يستريح .

هذه هى الناحية الأدبية لهذا الكتاب ، وهى أيسر الناحيتين بالقياس إلى الكاتب من جهة ، وإلى القارئ من جهة أخرى ، وإلى التفكير الفلسفى من جهة خاصة . فقد يمكن أن يقال إن الكاتب لم يرد إلى إنشاء قصة بالمعنى الذى ألفه الناس . وقد يمكن أن يقال إن القراء جميعـاً ليسوا من العسر بحيث يحاسبون الكاتب حساباً يسيراً أو عسيراً ، على ما أتيح له وما لم يتح له من التوفيق . فأما الناحيـة الفلسفية فهى الغـاية التى من أجلهـا كتب الكتاب ، وهى لا تحتمل تسامحاً ولا تهاوناً ولا تفريطاً . فالدقة فيهـا هى الأصل ، واستقامة التفكير شرط أساسى لكل فلسفة . وقد قدمت أنى لست مقتنعاً ، بل إنى بعيد كل البعد عن الاقتناع بالمذهب الفلسفى العام لألبير كامو ، وهو مذهب العبث . ويخيل إلى بعد ذلك أنه لم يوفق فى عرض مذهبه فى هذا الكتاب . وأحب قبل كل شئ أن ألاحظ شيئاً من التحكم دفع الكاتب إليه حين أراد أن يبين موقف الانسـان بين العقل والدين .

فهو قد أنشأ شخصاً جعله حبراً من أحبار اليسوعيين ، وأنطقه بما ظن أنه يصور مذهب أصحاب الديانات فيما يلم بالانسان من الشر ، ثم مضى بعد ذلك ينكر ما قاله هذا الحبر اليسوعى ، محيلا أو معتقداً أنه بالرد على هذا الحبر يرد على أصحاب الديانات جميعاً . وهذا الحبر اليسوعى قد أنشأه ألبير كامو نفسه بالطبع ، وأنطقه بما أراد أن ينطقه به . وأكاد أعتقد أنه لم يخلص من بعض الظلم حين صنع حبره على هذا النحو ، وحين أنطقه بما أنطقه به من القول . وآية ذلك أن أحبار المسيحيين أنفسهم ينكرون هذا الحبر الذى صنعه ألبير كامو ، ويراه بعضهم مسرفاً على الدين ، ويراه بعضهم خارجاً على الدين . وخلاصة ما يقوله الحبر للمؤمنين الذين أقبلوا يستمعون إليه فى الكنيسة ، أنهم يمتحنون بكارثة خطيرة مبيرة ، وأنهم أهل لما ألم بهم من هذه الكارثة ؛ لأنهم أسرفوا على أنفسهم بمعصية الله والخلاف عن أمره ، فهو يعاقبهم بما يصب عليهم من الهول ، ويجب عليهم أن يتلقوا هذا العقاب راضين به مذعنين له مطمئنين إليه ، تائبين إلى الله مما أسرفوا على أنفسهم فى الخطايا والموبقات . فالاله عند هذا الحبر الذى صنعه ألبير كامو سيد متكبر متجبر عزيز منتقم ، يضع الانسان أمام سيئاته دون أن يفتح له باباً من أبواب الرحمة ، أو يمسه بجناح من الرفق ، وهو يأخذ البرئ بذنب المسئ ، ويعاقب الصغار بذنوب الكبار . كذلك صور هذا الحبر موقف الانسان من إلهه موقف العبد الخاضع المذعن الذى يجب أن يمعن فى الخضوع والاذعان ، من السيد الكبير المتجبر الذى يستطيع أن يمعن فى الجبرية والكبرياء . وواضح أن الذين لا يؤمنون من الملحدين ينكرون هذا الاله المتكبر المتجبر ، ويرون أن فى كبريائه وجبريته قسوة عنيفة ، وغلظة غليظة ، وتجافياً عن العدل . فما ذنب الأطفال الذين عذبهم الطاعون وهم لم يعصوا للاله أمراً ولم يخالفوا عن قانونه ؛ لأنهم لم يعرفوا هذا القانون ولم يبلغوا سن التكليف . ومن يكفل أن يكون الثواب الذى يدخره هذا الاله لمن يدخره له من الناس قائماً على العدل ، مادام العقاب فيما يرون ليس قائماً على العدل ! فالمتكبر المتجبر قادر على أن يتحكم فيما يدخر للناس من مثوبة ، كما يتحكم فيما يصب عليهم من عقوبة . وهم من أجل ذلك لا يؤمنون بهذه الصلة التى لا تقوم على العدل ، ولا على الحرية . وإذ

كانوا لا يعرفون طريقاً إلى الالـه غير هذه الطريق التى رسمها الدين ، كما صوره هذا الخبر ، فهم لا يؤمنون بشئ بعد الطبيعة . وهم من أجل ذلك يعملون لا ينتظرون على عملهم أجراً فى الآخرة ؛ لأنهم لا يعرفون الآخرة . كما أنهم لا يخافون عقوبة فى الآخرة إن لم يعملوا ؛ لأنهم لا يعرفون الآخرة . وهم من أجل ذلك يمضون فى محاولة الخير إلى أقصى غاية ممكنة ، حتى يقول بعضهم لبعض : أليس من الممكن أن يصير بعض الناس قديساً مدنيا ، دون أن يؤمن بالله الذى يتلقى القديسين بما أعد لهم من أجر ومثوبة ، فيما يقول رجال الدين ؟

كذلك عرض ألبير كامو هذه المشكلة عرضاً يظهر فيه التحكم والسذاجة كما ترى . فأما التحكم فلأن خبره هـذا ليس من الضرورى أن يكون قد نطق بلسان أصحاب الديانات ، فأحسن الاعراب عنهم . وآية ذلك أن رجال الدين أنفسهم ينكرونه . وآية ذلك بوجه خاص أن الديانات السماوية كلها لا تحدثنا عن الالـه المتكبر المتجبر المنتقم الباطش فحسب ، ولكنها تحدثنا كذلك عن الالـه الرحمن الرحيم العفو الغفور الذى يقبل الحسنة ، ويتوب على المذنب ، وتسع رحمته كل شئ وكل إنسان .

فمن التحكم إذن والتعسف أن يقال إن صلة الالـه بالانسان هى صلة السيد المتجبر المتكبر ، بالعبد الذى يجب أن يذعن ويستكين ليس غير . وإنما الديانات تقول إنها كذلك صلة القوى الرحيم بالضعيف الذى يحتاج إلى الرحمة .

وأخص ما يؤخذ به ألبير كامو من التحكم فى هـذه القضية أنه ما زال يفكر بعقل القرن التاسع عشر حين كان هـذا العقل ثملا مغروراً لكثرة ما استكشف من العلم وابتكر من المخترعات ، حتى ظن أنه قد عرف كل شئ ، وأحاط بكل شئ ، وأصبح قادراً على أن يحكم على كل شئ ، ويقول كلمته فى كل شئ . ولكن العقل فيما يظهر قد ثاب إلى شئ من الرشـد والتواضع منذ أواخر القرن الماضى ، وقد استبان له أنه مادام يعترف بأنه يجهل من حقائق هذا العالم أكثر مما يعلم ، وبأنه يستكشف حقائق هذا العالم قليلا ، ويستكشفها فى كثير من الحذر والاحتياط ، فمن الجراءة أن ينكر ما عدا هذا العالم ، وأن يقول فيما ليس له به علم ، وما ليس له سبيل إلى القول

فيه . فهو لم يعرف الالـٰه ، ولم يستطع أن يجد الطريق إلى معرفته من طريق الحس والتجربة والملاحظة ، كما يعرف ما يعرف من حقائقه العلمية . ولكنه يلاحظ فى غير شك أن من الناس من يسلك إلى معرفة الالـٰه طرقاً غير طرق الحس والتجربة والملاحظة ، ويجد فى سلوك هذه الطرق رضا وأمناً وثقة واطمئناناً ؛ فأيسر ماتفرضه عليه الدقة أن يقف موقف الانتظار ، لا يتجاوزه إلى الجحود والانكار ، فضلا عن أن يتجاوزه إلى موقف الحكم على ما يوصف به الالـٰه من صفات ، وما يصدر عنه من أعمال . فكل هذا تجاوز للقصد وخروج على قوانين العقل نفسه . فالعقل لا يحكم إلا عن علم . ومتى أخطأه العلم وجب عليه أن ينتظر . فالذين يعدون أطوارهم ، ويصفون الالـٰه بالقسوة والعنف أو بالغلظة والظلم ، لا يسرفون على أنفسهم فحسب ، وإنما يدفعونها إلى السخف والهذيان ؛ لأنهم يقولون عن غير علم ، ويحكمون عن غير بصيرة . وما من شك فى أن الذين يعملون الصالحات لا يبتغون بها إلا الخير ، ولا ينتظرون عليها أجراً فى الدنيا والآخرة . قوم أخيار من حق الانسانية لنفسها أن تكبرهم وتتخذهم أسوة وقدوة فى حب الخير والسعى إليه والجد فيه ، غير مبتغية عليه جزاء ولا شكوراً . ولكن ليس من شك فى أننا لا نعلم مصير هؤلاء الأخيار ، كما أننا لا نعلم مصير الأشرار بالعقل ؛ لأن العقل لا يعرف مما بعد الطبيعة شيئاً .

وإذا كان الأمر كذلك بالقياس إلى هذه القضية ، فمذهب العبث كله معرض لهذا النقد نفسه ؛ لأن من الجراءة والاسراف فى الكبرياء والغرور أن يقول إنسان لست أعرف لهذه الوجود غاية ولا حكمة ولا غرضاً ، فيجب أن يكون هذا الوجود عبثاً . وإنما الذى يجب أن يقال لست أعرف لهذا الوجود غاية ولا حكمة ولا غرضاً ، فيجب أن أنتظر لعلى أستكشف أنا ، أو لعل غيرى أن يستكشف لهذا الوجود حكمة وغاية وغرضاً .

والشئ المحقق هو أن مذهب العبث هذا ، لون من ألوان اليأس الذى تدفع الانسانية إليه ، حين تشتد عليها الأزمات ، وتأخذها الخطوب والأهوال من جميع وجوهها .

وقد عرفت الانسانية هذا اليأس فى كثير من عصورها المختلفة التى تعرضت فيها لأنواع الهول ، وعرفت ما نشأ عن هذا اليأس من مذاهب الشك

والتشاؤم والجموح . ومهما يكن من شئ فلو لم يكن لهـذا الكتاب إلا أنه يدعو قارئه إلى أن يفكر ويطيل التفكير فى مسائل ليست هى من هـذه الهنات اليومية ، التى تملك عليه أمره وتفسد عليه حياته ، لكان خليقاً أن يقدر ويقرأ فى إعجاب بصاحبه واعتراف له بالجميل . لأنه يرفعنا من طور الحياة اليومية السخيفة ، إلى طور التفكير فى المشكلات العليا . وما أقل مايرقى بنا إلى هذا الطور من التفكير الرفيع فى هذه الأيام .

طه حسين